الباب الحادي عشر

خليط من الأمم

الفصل الأول

الشعوب الهندوربية

مسرح الأجناس – الميتانيون – الحثيون – الأرمن – السكوذيون –
الفريجيون – الأم المقدسة – الليديون – كروسس –
العملة – صولون وقورش

كان الشرق الأدنى فى عهد نبوخذ نصر يبدو للعين البعيدة الفاحصة كأنه بحر خضم يتلاطم فيه خليط من الآدميين، يأتلفون ثم يتفرقون، يَستعبدون ثم يُستعبدون، يأكلون ويؤكلون، ويَقتتلون ويُقتلون إلى غير نهاية. وكان من وراء الإمبراطوريات الكبرى ومن حولها – مصر وبابل وأشور والفرس – يضطرب هذا الخليط من الشعوب نصف البدوية نصف المستقرة: الكمريين، والقليقيين، والكبدوكيين، والبثونيين، والأشكانيين، والميزيين، والميونيين، والكريين، والبمفيليين، والبزيديين، واللوكوانيين، والفلسطينيين، والعموريين، والكنعانيين، والإدميين، والعمونيين، والموآبيين وعشرات العشرات من الشعوب الأخرى التى كان كل شعب منها يظن نفسه مركز الأرض ومحور التاريخ، ويعجب من جهل المؤرخين وتحيزهم إذ لم يخصوه إلا بفقرة أو فقرتين فى كتبهم.

وكان هؤلاء البدو طوال تاريخ الشرق الأدنى خطرا يهدد الممالك التى كانت

أكثر منهم استقراراً ، والتى كانوا يحيطون بها من كل الجهات تقريباً . وكان الجدب يدفع بهم من حين إلى حين إلى هذه الأصقاع الغنية ، فتشب بينها وبينهم الحرب ، أو يتطلب منها ذلك الاستعداد الدائم للحرب[1] . وكان الذى يحدث عادة أن تموت المملكة المستقلة وتحيا من بعدها القبيلة البدوية التى اجتاحت أراضيها فى آخر الأمر . والعالم ملىء بالأصقاع التى ازدهرت فيها الحضارة فى يوم من الأيام والتى عاد البدو يجوسون خلالها من جديد .

وفى بحر الأجناس المتلاطم أخذت بعض الدول الصغرى تتشكل ، ويكون لها نصيب صغير فى تراث الجنس البشرى ، وإن لم يزد نصيبها هذا على أن تكون ناقلة وموصلة . ويهمنا من هذه الشعوب الميتانيون ، وليس ذلك لأنهم أعداء مصر الأقدمون فى الشرق الأدنى ، بل لأنهم أول الشعوب الهندوربية التى عرفناها فى آسية ، ولأنهم أول عبدة الآلهة — مثرا ، وإندرا ، وفرونا — التى انتقلت منهم إلى فارس والهند ، فأعانتنا بانتقالها على تتبع حركات الجنس الذى كان يطلق عليه من قبيل التيسير الجنس « الآرى »(*) .

وكان الحثيون من أقوى الشعوب الهندوربية القديمة ومن أكثرها حضارة ، وأكبر الظن أنهم جاءوا عن طريق البسفور والهلسبنت (الدردنيل) وبحر إيجه ، أو عن طريق القفقاس ، واستقروا طبقة عسكرية حاكمة تسيطر على الزراع سكان البلاد الأصليين فى شبه الجزيرة الجبلية الواقعة جنوبى البحر الأسود والمعروفة الآن باسم آسية الصغرى . ونراهم حوالى ١٨٠٠ ق . م مستقرين قرب منابع دجلة والفرات ، ثم نشروا بعدئذ جيوشهم وبسطوا نفوذهم فى سوريا ، وأقلقوا بال

(*) كان أول ظهور لفظ الآريين عند الحرى إحدى قبائل أمة الميتانى . وكان هذا اللفظ اسماً أطلقته على نفسها مجموعة الشعوب الضاربة بقرب شواطئ بحر قزوين أو التى كان أصلها ممن يضربون بالقرب من هذه الشواطئ . أما اليوم فإن هذا اللفظ يطلق بنوع خاص على الميتانيين والحثيين ، والميديين ، والفرس ، والهنود القدا — أى على الشعبة الشرقية من الشعوب الهندوربية التى عمرت شعبتها الغربية بلاد أوربا[2] .

obeikandl.com

مصر القوية حيناً من الزمان . ولقد رأينا كيف اضطر رمسيس الثانى أن يعقد الصلح ، وأن يقر لملك الحثيين بأنه نده . واتخذ الحثيون عاصمتهم عند بوغاز كوى(*) وجعلوا أساس حضارتهم فى أول الأمر الحديد الذى استخرجوه من الجبال المتاخمة لأرمينية ، ثم الشرائع التى تأثرت كثيراً بشرائع حمورابى ، ثم ما طبعوا عليه من إدراك ساذج للجمال حفزهم إلى نحت تماثيل مجسمة ضخمة سمجة أو نقرها فى صخور الجبال(**) . وكانت لغتهم تنتمى فى أكثر ألفاظها إلى أسرة اللغات الهندوربية ، وقد حل رنزنى رموزها من عهد قريب بدراسة الاثنى عشر ألف لوح التى عثر عليها هيوجو ونكلر فى بوغاز كوى . وهى فى اشتقاقها وتصريفها شديدة الشبه باللغتين اللاتينية واليونانية ، ومن كلماتها البسيطة ما هو ظاهر القرابة للكلمات الإنجليزية(†) وكان للحثيين خط تصويرى يكتبونه بطريقتهم الخاصة العجيبة . إذ كانوا يكتبون سطراً من الشمال إلى اليمين ، ثم يكتبون السطر الذى يليه من اليمين إلى الشمال ، ثم من الشمال إلى اليمين وهكذا دواليك . وأخذوا الخط المسمارى عن البابليين ، وعلموا أهل كريت صنع الألواح الطينية ليكتبوا عليها ، ويظهر

(*) فى شرقى نهر هاليس ، وبالقرب منها على الضفة الأخرى من النهر تقع مدينة أنقرة عاصمة تركيا الحديثة ، وهى ابنة أنقورة التى كانت فى الأيام القديمة حاضرة فريجيا . وقد يكون مما يعيننا على رسم صورة ثقافية متناسبة الأبعاد أن ندرك أن الأتراك الذين نسميهم « مرعبين » يفخرون بقدم عاصمتهم ويرثون لحال أوربا التى يسيطر عليها البرابرة الكفرة . إن كل بقعة فى العالم لتعد بلا جدال مركزاً له .

(**) وقد كشفت البارون ڤون أوبنهايم عند تل حلف وغيره من الأماكن كثيراً من تحف الحثيين الفنية ، وجمعها فى متحفه ، وهو مصنع مهجور فى برلين . ويرجع كاشف هذه الآثار تاريخ معظمها إلى حوالى ١٢٠٠ ق . م ، ويرجع بعضها إلى الألف الرابع قبل الميلاد . وتحتوى هذه المجموعة طائفة من الآساد منحوتة فى الحجر نحتاً ساذجاً ولكنه قوى ، وتماثيل لثالوث الآلهة الحثية — إله الشمس ، وإله الجو ، وهبات إشتار الحثيين . وأعظم ما يروعنا من هذه التماثيل تمثال لأبى الهول قبيح المنظر ، وضع أمامه وعاء من الحجر ليقرب فيه القربان .

(†) انظر مثلا فادار Water إزا Eat ، أو جا أنا I (وبلاتينية Ego) توج hee ، فش we ، مو me ، كوش who (وباللاتينية quis) ، كوت what (باللاتينية quid) وغيرها(٣) .

أنهم اختلطوا بالعبرانيين الأقدمين اختلاطاً شديداً أكسب هؤلاء أنفهم الأقنى الشديد القنا . ومن ثم فإن من واجبنا أن نعد هذه الخاصة العبرية « آرية » حقة(٤) . ومن الألواح التى بقيت إلى هذه الأيام ما يحتوى على مفردات حثية وما يقابلها باللغتين السومرية والبابلية ، ومنها ما هو أوامر إدارية تكشف عن دولة عسكرية ملكية متماسكة ؛ ومنها حطام ألواح تبلغ عدتها مائتين تحوى على طائفة من القوانين من بينها قواعد لتحديد أثمان السلع(٥) . ولقد اختفى الحثيون من صفحة التاريخ اختفاء يكاد يشبه فى غرابته وغموضه ظهورهم فيها ، فقد اندثرت عواصمهم واحدة بعد واحدة — ولعل سبب اندثارها أن ميزتهم العظيمة التى فاقوا بها غيرهم من الشعوب ، وهى معرفة الحديد ، أضحت فى متناول منافسيهم وسقطت قرقيش آخر عواصمهم فى يد الأشوريين عام ٧١٧ ق . م .

وكان إلى شمال بلاد أشور أمة مستقرة إذا قيست إلى غيرها من الأمم ، يعرفها الأشوريون باسم أرارتو ، والعبرانيون باسم أرارات ، ومن جاء بعدهم من الأمم باسم الأرمن . واحتفظ الأرمن بحكومتهم المستقلة ، وعاداتهم وفنونهم الخاصة ، قروناً كثيرة تبدأ قبل فجر التاريخ المدون ، وتستمر إلى أن بسط الفرس سلطانهم على آسية الغربية بأجمعها . وأثروا فى أيام أرجستس الثانى أعظم ملوكهم (حوالى ٧٠٨ ق . م) من تعدين الحديد وبيعه فى بلاد آسية واليونان ، وبلغوا درجة عظيمة من الرخاء وسهولة العيش والحضارة والآداب العامة ، وشادوا المبانى العظيمة من الحجارة ، وصنعوا المزهريات والتماثيل الصغيرة الجميلة الدقيقة . ولكنهم أضاعوا ثروتهم فى الحروب الهجومية الكثيرة النفقات ، وفى صد غارات الأشوريين عن بلادهم . ثم بسط عليهم الفرس سلطانهم فى أيام قورش الفاتح .

وإلى شمال الأرمن ، وعلى ضفاف البحر الأسود ، كان يتجول السكوذيون وهم عشائر حربية تتألف من خليط من المغول والأوربيين ، جبابرة متوحشون ملتحون ، يقيمون فى عربات ، ويبقون نساءهم فى عزلة شديدة(٦) ، ويركبون

obeikandi.com

الخيل البرية عارية ، يحاربون ليعيشوا ، ويعيشون ليحاربوا ، ويشربون دماء أعاديهم ، ويتخذون جلود رؤوس هؤلاء الأعداء قطائل لهم(٧) ، أضعفوا أشور بغاراتهم الدائمة عليها ، واجتاحوا غربي آسية (حوالى عام ٦٣٠ — ٦١٠ ق . م) أخذوا يدمرون فى طريقهم كل شىء ويقتلون كل إنسان ، وتقدموا إلى مدن دال النيل نفسها ، ثم فشا فيهم وباء غريب مجهول قضى على عدد كبير منهم ، وغلبهم آخر الأمر الميديون ، وردوهم على أعقابهم إلى مساكنهم فى الشمال(٨)(*) وإنا لنلمح فى هذه القصة ومضة أخرى من المأساة التى تتكرر على الدوام فى جميع العصور ، وهى ما تفعله القبائل الهمجية الرابضة وراء الأمم القديمة جميعها والمحيطة بها .

وظهرت فى أواخر القرن التاسع قبل الميلاد قوة جديدة فى آسية الصغرى ، ورثت بقايا الحضارة الحثية ، وكانت حلقة اتصال بينها وبين ليديا وبلاد اليونان . وكانت الأساطير التى حاول بها الفريجيون أن يفسروا للمؤرخين المتشوفين قيام دولتهم قصة رمزية لقيام الأمم وسقوطها . فهم يقولون إن جورديوس أول ملوكهم كان فلاحاً بسيطاً لم يرث من أبويه إلا ثورين اثنين(**) ، وإن ابنه ميداس ثانى أولئك الملوك كان رجلاً متلافاً أضعف الدولة بشراهته وإسرافه

(*) يحدثنا أبقراط أن « نساءهم ، طالما كن عذارى : يركبن الخيل ، ويصدن ، ويرمين بالحراب وهن على ظهور الخيل ؛ ويحاربن أعداءهن . ولا يسمحن بفض بكارتهن إلا إذا قتلن ثلاثة من هؤلاء الأعداء . . . والمرأة التى تتخذ لها زوجاً لا تقاتل قط بعد الزواج ، إلا إذا أرغمت على هذا العمل بالاشتراك فى حملة عامة . وليس لهؤلاء النساء ثدى أيمن ، وذلك لأن أمهاتهن يأتين بأداة من البرنز متوهجة من شدة حرارتها تصنع لهذا الغرض خاصة ويكوينهن بها وهن فى سن الرضاع فى مكان ثديهن الأيمن ، فيقف بذلك نموه وتتحول كل قوته ونمائه إلى الكتف اليمنى والذراع اليمنى »(٩) .

(**) وأمر الهاتف زيوس الفريجيين أن يختاروا ملكاً عليهم أول رجل يدخل الهيكل فى عربة ؛ وكان هذا الداخل هو جورديوس . ووهب الملك الجديد الإله عربته . وتنبأ هاتف جديد بأن من يفلح فى حل العقدة المشكلة التى تربط النير بعريش العربة يحكم جميع بلاد آسية . فجاء الإسكندر — حسبما ترويه القصة — وقطع العقدة الجوردية بضربة سيفه .

اللذين مثلهما الخلف بالأسطورة المأثورة التى تقول إنه طلب إلى الآلهة أن تهبه القدرة على تحويل كل ما يمسه إلى ذهب . وأجابت الآلهة طلبه فكان كل ما يمس جسمه يستحيل ذهبا حتى الطعام الذى تلمسه شفتاه . وأوشك الرجل أن يموت جوعاً ، لكن الآلهة سمحت له أن يطهر نفسه من هذه النقمة بأن يغتسل فى بكتولس — وهو النهر الذى ظل بعدئذ يخرج حصى من الذهب .

واتخذ الفريجيون طريقهم من آسية إلى أوربا ، وشادوا لهم عاصمة فى أنقورة ، وظلوا وقتاً ما ينازعون أشور ومصر السيادة على الشرق الأدنى ، واتخذوا لهم إلهة — أمًّا تدعى ما ، ثم عادوا فسموها سيبيل ، واشتقوا هذا الاسم من الجبال (سيبيلا) التى كانت تعيش فيها ، وعبدوها على أنها روح الأرض غير المزروعة ، ورمز جميع قوى الطبيعة المنتجة . وأخذوا عن أهل البلاد الأصليين طريقة خدمة الإلهة بالدعارة المقدسة ، ورضوا بأن يضموا إلى أساطيرهم الشعبية القصة التى تقول إن سيبيل أحبَّت الإله الشاب أرتيس(*) وأرغمته على أن يخصى نفسه تكريماً لها . ومن ثم كان كهنة الأم العظيمة يضحون لها برجولتهم حين يدخلون فى خدمة هياكلها[11] . وقد سحرت هذه الخرافات الوحشية لب اليونان وتغلغلت فى أساطيرهم وأدبهم . وأدخل الرومان الإلهة سيبيل رسمياً فى دينهم ، وكانت بعض الطقوس الخليعة التى تحدث فى حفلات المساخر الرومانية مأخوذة عن الطقوس الوحشية التى كان الفريجيون يتبعونها فى احتفالهم بموت أرتيس الجميل وبعثه[12] .

وانتهى سلطان الفريجيين فى آسية الصغرى بقيام مملكة ليديا الجديدة التى أسسها الملك جيجيس واتخذ سرديس عاصمة لها . ثم حكمها أليتيس أربعين سنة بلغت فى خلالها درجة عظيمة من الرخاء والقوة ثم ورثها كروسس (٥٧٠ — ٥٤٦ ق . م) واستمتع بها أيما استمتاع ، ووسع رقعتها بما فتحه من أقاليم

(*) تحدثنا الأساطير بأن أرتيس ولدته نانا الإلهة العذراء بمعجزة من المعجزات ، وبأنها حملت فيه بوضع رمانة بين ثدييها[10] .

جديدة شملت آسيا الصغرى جميعها تقريباً ، ثم أسلمها آخر الأمر إلى الفرس واستطاع بفضل الرشى السخية التى كان يقدمها الساسة المحليين أن يخضع إلى ليديا الدويلات التى كانت تحيط بأملاكه واحدة بعد واحدة ، كما استطاع بضحاياه المنقطعة النظير والتى كان يقدمها قرباناً إلى الآلهة المحلية أن يهدئ من غضب شعوب تلك الدويلات ، وأن يقنعها بأنه حبيب آلهتهم . وامتاز كروسس عن غيره من الملوك بسك نقود ذهبية وفضية ذات شكل بديع تضربها الدولة وتضمن قيمتها الاسمية . وليست هذه هى أول المسكوكات الرسمية التاريخية كما اعتقد المؤرخون زمناً طويلا ، وليست هى بلا جدال بداية اختراع المسكوكات(*) ، ولكنها مع هذا كانت مثالا يحتذى ساعد انتشار التجارة فى بلاد البحر المتوسط . لقد ظل الناس قروناً طوالا يستخدمون معادن مختلفة لتقدير قيم البضائع وتسهيل تبادلها ، ولكنها سواء كانت النحاس أو البرنز أو الحديد أو الفضة أو الذهب كانت فى أغلب البلاد تقدر قيمتها فى كل عمل تجارى حسب وزنها أو حسب غيره من الاعتبارات. لهذا كان استبدال عملة قومية معترف بها رسمياً بهذه الوسائل المتبعة إصلاحاً عظيم القيمة فى عالم التجارة ، فقد يسرت هذه الوسيلة الجديدة انتقال السلع ممن يحسنون إنتاجها إلى من هم فى أشد الحاجة إليها ، فزاد ذلك من ثروة العالم ، ومهد السبيل لقيام المدنيات التجارية كمدنيات الأيونيين واليونان ، حيث استخدمت الثروة التى جاءت من طريق التجارة لتمويل الأعمال الأدبية والفنية .

ولم يصل إلينا شىء من الأدب الليدى ، كذلك لم يبق قط شىء من المزهريات الجميلة القيمة المصنوعة من الذهب والحديد والفضة والتى تقرب بها كروس للآلهة التى غلبها . وتدل المزهريات التى وجدت فى مقابر الليديين والتى

(*) وجدت مسكوكات أقدم من هذه عهداً عند موهنجو – دارو فى الهند (٢٩٠٠ ق . م) ، ولقد رأينا من قبل كيف سك سنحريب (حوالى عام ٧٠٠ ق . م) قطعاً من النقود قيمتها نصف شاقل .

يحتويها الآن متحف اللوفر على أن ما كان لمصر وبابل من زعامة على الفن في ليديا أيام كروسس قد أخذ يحل محله نفوذ اليونان المتزايد ؛ وكان لهذه المزهريات من دقة الصنع ما يعادل أمانتها وإخلاصها للطبيعة . ولما زار هيرودوت ليديا وجد أن عادات أهلها لا تكاد تمتاز عن عادات اليونان أهل بلاده ؛ ويقول إن ما كان باقياً لديهم من هذه العادات التي تميزهم عن اليونان هو أن بنات العامة منهم كن يكسبن بائناتهن من الدعارة(١٤) . وهذا المؤرخ الثرثار نفسه هو أهم ما نعتمد عليه من المراجع في القصة التي تروى عن كيفية سقوط كروسس . فهو يقص علينا كيف عرض كروسس ثروته على صولون ، ثم سأله عمن يراه أسعد الناس . وبعد أن ذكر صولون أسماء أشخاص ثلاثة كلهم من الموتى أبى أن يقول إن كروسس سعيد ، وحجته في هذا أنه لا يعرف أي المصائب قد يأتي بها الغد . وأخرج كروسس المشرع العظيم من عنده معتقداً أنه إنسان أبله . ثم أخذ بعدئذ يأتمر ببلاد الفرس ؛ وما لبث أن رأى جحافل قورش على أبوابه . وانتصر عليه الفرس بفضل ما كان لجمالهم من رائحة نتنة قوية — كما يقول هذا المؤرخ نفسه — لم تطقها جياد الليديين ؛ فجمحت ودحر الليديون ، وسقطت سرديس . وتقول الرواية القديمة إن كروسس أعد كومة كبيرة من الحطب ، واتخذ مكانه عليها ومن حوله أزواجه وبناته ومن بقى على قيد الحياة من أبناء بلاده ، ثم أمر خصيانه أن يحرقوهم جميعاً . وذكر في اللحظات الأخيرة من حياته قول صولون ، فأسف على جهله وقلة تبصره ، وأخذ يلوم الآلهة التي تقبلت جميع قرابينه وجازته عليها بالخراب والهلاك . وأشفق عليه قورش — إذا جاز لنا أن نأخذ برواية هيرودوت(١٥) — وأمر بالنار أن تطفأ ، وأخذ كروسس معه إلى فارس ، وجعله من أقرب مستشاريه ومن أكثرهم جدارة بثقته .

الفصل الثانى

الأقوام الساميون

قدم العرب — الفينيقيون — تجارتهم العالمية — طوافهم حول أفريقية — مستعمراتهم — صور وصيدا — آلهتهم — نشر الحروف الهجائية — سوريا — عشتورت — موت أدنيس وبعثه — التضحية بالأطفال

إذا حاولنا أن نقلل من اضطراب اللغات وتباينها فى الشرق الأدنى بقولنا إن معظم الشعوب التى كانت تسكن فى الأجزاء الشمالية من هذا الإقليم شعوب هندوربية وإن التى تقطن الأجزاء الوسطى والجنوبية منه والممتدة من أشور إلى جزيرة العرب شعوب سامية(*) ، إذا حاولنا هذا فإن من واجبنا فى الوقت نفسه أن نذكر أن الحقائق ليست واضحة المعالم إلى هذا الحد ، وأن الفوارق بين الأجناس ليست بهذه الصورة التى نرسمها للتفرقة بينها تيسيراً للبحث ؛ لسنا ننكر أن بلاد الشرق الأدنى تقسمها الجبال والصحارى إلى بيئات مختلفة منعزلة بعضها عن بعض بطبيعتها ، وأنها لذلك تختلف فى لغاتها وتقاليدها . ولكن التجارة قد عملت على مزج لغات هؤلاء الأقوام وعاداتهم وفنونهم فى طرقها الرئيسية (كالطريق الممتد على شواطئ النهرين الكبيرين من نينوى وقرقميش إلى الخليج الفارسى) ، هذا إلى أن هجرة الشعوب ونقل جماعات كبيرة منها قسراً لأغراض استعمارية قد مزجا الأجناس واللغات المختلفة مزجاً كان من آثاره أن صحب اختلافها فى الدم بعض التجانس فى الثقافة . ومن ثم فإننا إذا سمينا بعض الشعوب هندوربية فإنما نقصد بهذه التسمية أن هذه هى الصفة الغالبة عليها ؛ وإذا قلنا إن شعباً ما « سامياً » فإن

(*) لفظة سامية مشتقة من سام الذى يقال إنه أبو الشعوب السامية كلها .

كل ما نعنيه أن السامية غالبة فيه : ولكن الحقيقة أنه لا توجد سلالة صافية ولم توجد قط ثقافة لم تتأثر بثقافة جيرانها أو ثقافة أعدائها . ومن واجبنا أن ننظر إلى هذه الرقعة الواسعة على أنها بيئة تدفقت على أجناسها المختلفة طوائف من هذا الجنس أو ذاك ؛ فغلب عليها الجنس الهندوروبي تارة وغلب عليها السامي تارة أخرى ، ولكن غلبة هذا الجنس أو ذاك لم تثمر من الناحية الثقافية إلا اصطباغ هؤلاء الغالبين بالصفات الثقافية العامة في مجموع هذه الأجناس . فقد كان بين حمورابي ودارا الأول مثلاً اختلاف كبير في الدم والدين ، وكان يفصل بينهما من القرون ما يكاد يفصل منها بيننا وبين المسيح ، ولكننا إذا درسنا هذين العاهلين العظيمين دراسة دقيقة ، أدركنا أن من وراء هذا الاختلاف قرابة جوهرية بعيدة القرار .

ومهد الجنس السامي ومرباه جزيرة العرب ، فمن هذا الصقع الجدب حيث ينمو « الإنسان شـــديداً عنيفاً ، وحيث لا يكاد ينمو نبات على الإطلاق » ، تدفقت موجة في إثر موجة في هجرات متتابعة من خلائق أقوياء شديدى البأس لا يهابون الردى ، بعـــد أن وجدوا أن الصحراء والواحات لا تكفيهم ، فكان لا بد لهم أن يفتتحوا بسواعدهم مكاناً خصباً ظليلا يعولهم ويقوم بأودهم . فأما من بقى منهم فى بلادهم فقد أوجدوا حضارة العرب والبدو ؛ وأنشئوا الأسرة الأبوية وما تتطلبه من طاعة وصرامة خلقية ، وتخلقوا بالجبرية وليدة البيئة الشاقة الضنينة ، والشجاعة العمياء التى تدفع أصحابها إلى وأد بناتهم وتقديمهن قرباناً للآلهة . على أن الدين لم يكن أمراً جدياً بين هؤلاء الأقوام حتى جاءهم محمد بالإسلام ؛ ولم يعنوا بالفنون وملاذ الحياة لأنهم كانوا يرونها خليقة بالنساء ومن أسباب الضعف والانحلال . وظلوا وقتاً ما يسيطرون على التجارة مع الشرق الأقصى ، تتكدس فى ثغورهم غلات جزائر الهند ، وتحمل قوافلهم تلك الغلات وتنقلها فى الطرق البرية غير الآمنة إلى فينيقية وبابل . وشادوا فى قلب جزيرتهم العريضة المدن والقصور

والهياكل ، ولكنهم لم يكونوا يشجعون الأجانب على المجىء إليها ورؤيتها . ولقد بقى هؤلاء الأقوام آلاف السنين يحيون حياتهم الخاصة بهم ، محافظين على عاداتهم وأخلاقهم ، متمسكين بآرائهم ، ولا يزالون إلى اليوم كما كانوا فى أيام كيوپس وجوديا . ولقد شهدوا مئات الممالك تقوم وتفنى من حولهم ، ولا تزال أرضهم ملكاً لهم يعضون عليها بالنواجذ ، ويحمونها من أن تطأها الأقدام الدنسة أو تنظر إليها الأعين الغريبة .

والآن يحق للقارئ أن يسأل من هم أولئك الفينيقيون الذين تردد ذكرهم فى هذه الصحف ، والذين مخرت سفنهم عباب البحار كلها فلم يكن يخلو ثغر من تجارهم يساومون فيه ويبيعون ويشترون ؟ إن المؤرخ ليستحى إذا سئل عن أصلهم فهو لا يرى بدا من الاعتراف بأنه لا يكاد يعرف شيئاً من التاريخ الباكر أو التاريخ المتأخر لهذا الشعب الذى نراه فى كل مكان ، ولكنه يفلت منا إذا أردنا أن نمسك به لنخبره وندرسه[١٥] : فلسنا نعرف من أين جاء الفينيقيون ، أو متى جاءوا ، ولسنا واثقين من أنهم ساميون(*) أما تاريخ قدومهم إلى شاطئ البحر المتوسط فليس فى وسعنا أن نكذب ما قاله علماء صور لهيرودوت ، وهو أن أجدادهم قدموا إلى بلادهم هذا من شواطئ الخليج الفارسى ، وأنهم شادوا تلك المدينة فى العهد الذى نسميه نحن القرن الثامن والعشرين قبل ميلاد المسيح[١٧] . بل إن اسمهم نفسه لمن المشاكل العسيرة الحل . فقد يكون معنى لفظ الفوانكس الذى اشتق منه اليونان هذا الاسم هو الصبغة الحمراء التى كان يبيعها تجار صور ، وقد يكون معناه النخلة التى تترعرع على الشواطئ الفينيقية(**) ، وكان ذلك الشاطئ ، وهو شريط ضيق من الأرض يبلغ طوله ١٠٠ ميل ولا يزيد عرضه على عشرة

(*) يقول أوتران إنهم كانوا فرعاً من فروع الأقوام الذين أنشئوا الحضارة الكريتية[١٦].

(**) يكتب هذا الاسم أحياناً بالواو وبدل الياء فيقال فونيقية وفوفيق ولعل هذا أصوب وإن لم يكن مؤكداً كل التأكيد ، ولكننا آثرنا اللفظ القديم المألوف لأنه لم يثبت خطؤه . (المترجم)

أميال ، محصوراً بين البحر من جهة وسوريا من الجهة الأخرى، وكان هو كل ما يطلق عليه اسم بلاد فينيقية . ولم ير أهله أن استيطان جبال لبنان القائمة فى شرق بلادهم أو إخضاع هذا الإقليم لحكمهم عملا خليقاً باهتمامهم ، بل كانوا يقنعون بأن يظل هذا الحاجز المبارك قائماً شرق بلادهم يحميهم من الأمم ذات النزعة الحربية التى كانوا يحملون بضائعها إلى خلجان البحار .

وقد اضطرتهم هذه الجبال إلى العيش على ظهر البحار ، وظلوا من عهد الأسرة السادسة المصرية إلى ما بعدها أنشط تجار العالم القديم ؛ ولما تحرروا من حكم مصر (حوالى ١٢٠٠ ق . م) أضحوا سادة البحر المتوسط ، ولم يكتفوا بنقل التجارة ، بل كانت لهم مصنوعات عدة من الزجاج والمعادن ، والمزهريات المنقوشة المطلية ، والأسلحة والحلىّ والجواهر . وقد احتكروا لأنفسهم صُنع الصبغة الأرجوانية التى استخرجوا مادتها من حيوان بحرى رخوى يكثر بالقرب من شواطئهم [١٨] ، ومن ثم اشتهرت نساء صور باستخدام الألوان الزاهية الجميلة التى كن يصبغن بها ما برعن فى تطريزه من الأقمشة . وكانوا ينقلون هذه المصنوعات والفائض الذى يمكن نقله من غلات الهند والشرق الأقصى — من حبوب ، وخمور ، ومنسوجات ، وحجارة كريمة — إلى موانى البحر المتوسط قريبة كانت منهم أو بعيدة عنهم : وكانت سفنهم تعود من هذه الموانى مثقلة بالرصاص ، والذهب ، والحديد من شواطئ البحر الأسود الجنوبية ؛ وبالنحاس ، وخشب السرو ، والغلال من قبرص (*) ، وبالعاج من أفريقية ؛ والفضة من أسبانيا ؛ والقصدير من بريطانيا ؛ وبالعبيد من كل مكان : وكانوا تجاراً دهاة ؛ أغروا فى مرة من المرار أهل أسبانيا بأن يعطوهم نظير شحنة من الزيت مقداراً من الفضة لم تتسع له سفائنهم ؛ فما كان من الساميين الماكرين إلا أن استبدلوا الفضة بما

(*) إن الاسمين الإنجليزيين للنحاس والسرو **Copper & Cypress** مشتقان من لفظ قبرص .

كان فى مراسى سفنهم من حديد وحجارة وأقلعوا بها مغتبطين(١٩) . على أن هذا لم يكفهم ، فأسروا الأهلين وسخروهم فى العمل فى المناجم ساعات طوالاً نظير أجور لا تكاد تكفى لابتياع أقواتهم(*) . ذلك أن الفينيقيين ، ككل التجار الأقدمين ، لم يكونوا يفرّقون كثيراً فى أعمالهم ولا فى لغاتهم بين التجارة والغدر ، أو بينها وبين اللصوصية ، فكانوا يسرقون الضعيف ، ويبتزون مال الغنى ، أما من عدا هذين الصنفين فكانوا يراعون معهم ما يقضى به الشرف . وكانوا أحياناً يستولون على السفن فى عرض البحار ، ويصادرون ما فيها من بضاعة ، ويأسرون من فيها من الملاحين ؛ وكثيراً ما كانوا يخدعون الأهلين المشوقين إلى الاستطلاع فيغرونهم بزيارة سفنهم ثم يبحرون بهم ويبيعونهم عبيداً(٢١) . وكان لهم أكبر الفضل فى تسوىء وسمعة التجار الساميين الأقدمين وبخاصة عند اليونان الأوّلين ، الذين كانوا يفعلون فعلهم(†) .

وكانت سفائنهم المنخفضة الضيقة البالغ طولها نحو سبعين قدماً طرازاً جديداً فى بناء السفن ؛ ذلك بأنهم لم يحتذوا فيها حذو السفن المصرية المنحنى مقدمها إلى الداخل ، بل جعلوه ينحنى إلى خارجها وينتهى بطرف رفيع يشق الريح أو الماء أو مراكب الأعداء . وكان للسفينة شراع واحد كبير مستطيل الشكل مرفوع على سارية مثبتة فى قاعها ، وكان هذا الشراع يساعد العبيد الذين كانوا يدفعونها بصفين من المجاذيف . وكان الجند يقفون على سطح السفينة فوق

(*) انظر ما يقوله جبن : « لقد شاءت الأقدار أن تكون أسپانيا فى العالم القديم كما كانت پيرو والمكسيك فى العالم الحديث . فلقد كان كشف تلك البلاد الغربيـة الغنية (يريد أسپانيا) على يد الفينيقيين ، وظلم أهلها السذج وتسخيرهم للعمل فى مناجمهم لفائدة الأجانب القادمين إلى بلادهم ، كان هذا كله سابقة لا تفترق فى شىء عما فعلته أسپانيا نفسها بأمريكا فى العصر الوسيط »(٢٠) .

(†) وأطلق اليونان — وقد ظلوا خمسمائة عام لا ينقطعون عن القرصنة وشن الغارات — اسم فينيقى على كل من كان دأبه الختل والتلصص(٢٢) .

المجذفين يحرسونها وهم متأهبون للاتجار أو للحرب على السواء . وكانت هذه السفن الضعيفة لا تسترشد ببيت الإبرة ولا يزيد غاطسها فى الماء على خمس أقدام . ومن أجل ذلك كانت تخشى أن تبتعد عن شاطئ البحر ، وظلت زماناً طويلا لا تجرؤ على السفر بالليل ؛ ثم ارتقى فن الملاحة شيئاً فشيئاً حتى استطاع أدلاء السفائن الفينيقيون أن يسترشدوا بالنجم القطبى (أو النجم الفينيقى كما كان يسميه اليونان) ويتوغلوا فى المحيطات ، ويطوفوا آخر الأمر حول أفريقية ، فساروا أولا بإزاء الساحل الشرقى متجهين نحو الجنوب و « كشفوا » رأس الرجاء الصالح قبل أن يكشفه فاسكودا جاما بنحو ألفى عام . وفى ذلك الوقت يقول هيرودوت : « ولما أقبل الخريف ، نزلوا إلى البر ، وزرعوا الأرض ، وانتظروا الحصاد ، فلما أن حصدوا الحب ، أقلعوا بسفائنهم مرة أخرى . ولما أن مرّت عليهم فى عملهم هذا سنتان وصلوا فى السنة الثالثة إلى مصر بعد أن طافوا بأعمدة هرقول (جبل طارق) »(٢٣) . ألا ما أعظم ما تقدّمنا عن أولئك الأقوام !

وأقاموا لهم حاميات فى نقط منيعة على ساحل البحر المتوسط ما زالت تكبر حتى أضحت مستعمرات أو مدناً غاصة بالسكان ، أقاموها فى قادز وقرطاجنة ، ومرسيلية ، ومالطة ، وصقلية ، وسردانية ، وقورسقة بل وفى إنجلترا البعيدة . واحتاوا قبرص ، وميلوس ، ورودس(٢٤) ، ونقلوا الفنون والعلوم من مصر ، وكريت ، والشرق الأدنى ، ونشروها فى اليونان ، وفى أفريقية ، وإيطاليا وأسبانيا ، وربطوا الشرق بالغرب بشبكة من الروابط التجارية والثقافية ، وشرعوا ينتشلون أوربا من براثن الهمجية .

وازدهرت المدن الفينيقية التى كانت تغذيها هذه التجارة الواسعة ، والتى كانت تحكمها طبقة من التجار الأثرياء حذقت فنون السياسة الخارجية والمالية ، وضنت بثروة البلاد أن تبدد فى الحروب الخارجية : وأصبحت هذه المدن على مدى الأيام من أغنى مدن العالم وأقواها . ومن هذه المدن مدينة بيلوس التى كانت

تظن نفسها أقدم مدن العالم كلها ، وأنها أنشأها الإله إل فى بداية الزمان . وظلت هذه المدينة إلى آخر أيامها القصبة الدينية لفينيقية . وكان البردى من أهم سلعها التجارية فاشتق اليونان من اسمها اسم الكتاب فى لغتهم ببلوس — Biblo — ومن هذه الكلمة نفسها اشتقت كلمة Bible الإنجليزية اسماً للكتاب المقدس .

وكان إلى جنوبى ببلوس وعلى بُعد نحو خمسين ميلا منها مدينة صيدا ؛ ولم تكن فى بداية أمرها إلا حصناً من الحصون ، ولكنها نمت نمواً سريعاً فكانت قرية ، ثم بلدة ، ثم مدينة مزدهرة غنية ، أمدت خشيارشاى بأحسن المراكب فى أسطوله . ولما أن حاصرها الفرس فيما بعد واستولوا عليها أبت عليهم أنفتهم وعزة نفوسهم أن يسلموها طائعين إلى أعدائهم فأضرموا النار فى مبانيها ودمروها عن آخرها ، وهلك فى حريقها أربعون ألفاً من سكانها(٢٥) . ثم أعيد بناؤها بعدئذ حتى إذا جاءها الإسكندر وجدها مدينة مزدهرة ، وسار بعض تجارها المغامرين فى مؤخرة جيشه إلى بلاد الهند بقصد « الاتجار »(٢٦) .

وكانت أعظم المدن الفينيقية كلها مدينة صور — أى الصخرة — ؛ وقد أنشئت على جزيرة تبعد عدة أميال عن البر . وبدأت هى أيضاً حصناً ، ولكن ميناءها الأمين وسلامتها من الغزو سرعان ما جعلاها حاضرة البلاد الفينيقية كلها ، ومأوى الخليط من التجار والعبيد جاءوها من جميع بلاد البحر المتوسط . وما أن حل القرن التاسع قبل الميلاد حتى كانت صور مدينة غنية فى عهد ملكها حيرام صديق الملك سليمان ؛ وفى أيام زكريا (حوالى ٥٢٠ ق . م) كانت الفضة التى تجمعت فيها كأنها التراب ، وكان الذهب كأنه « وحل الطرقات »(٢٧) . ويقول عنها استرابون : « إن بيوتها من طبقات كثيرة ، بل إنها أكثر طبقات من بيوت رومة »(٢٨) ، وقد ظلت بفضل ثروتها وبسالة أهلها مستقلة إلى أيام الإسكندر . ورأى هذا الشاب المتغطرس فى هذا الاستقلال تحدياً لعظمته فأخضعها بأن بنى طريقاً لها فى البحر جعل منها شبه جزيرة . ثم قضى

عليها القضاء الأخير ازدهارُ مدينة الإسكندرية .

وكان للفينيقيين آلهة كثيرة شأنهم فى ذلك شأن كل أمة تشعر بالتيارات العالمية المعقدة . فكان لكل مدينة بعلها (أى سيدها) أو إلهها الخاص ، وهو فى اعتقاد أهلها جد ملوكها ، ومخصب أرضها ، فكانت الحبوب ، والخمور ، والتين والكتان كلها من عمل بعل المقدس . وكان بعل صور يسمى ماكرات ؛ وكان كهرقول — الذى قال اليونان إنه صورة أخرى منه — إله القوة والبطولة قام بأعمال شبيهة بأعمال منشهرزن . وكانت عشتورت (أستارتى) الاسم الفينيقى لإشتار . ومن خصائصها أنها كانت تُعبد فى بعض الأماكن على أنها إلهة الطهر ، وفى أماكن أخرى على أنها إلهة الفجور والحب الشهوانى ، وقد جعلها اليونان فى هذه الصفة الأخيرة صورة من إلهتهم أفروديت . وكما كانت إشتار — ميلتا تتقبل بكارى عابداتها من البنات فى بابل ، كذلك كانت النساء اللاتى يعبدن عشتورت فى ببلوس يقدمن لها غدائرهن أو يستسلمن لأول غريب يعرض عليهن حبه فى جوار الهياكل . وكما أحبّت إشتار تموز ، كذلك أحبّت عشتورت أدنى (أى الرب) ، وكان يحتفل فى ببلوس ، وباثوس (فى قبرص) كل عام بمقتله على أنياب خنزير برى بالنحيب وضرب الصدور . وكان من حسن حظ أدنى أنه يقوم من بين الأموات كلما فارق الحياة ، ويصعد إلى السماء على مشهد من عُبّاده(٢٩) . وكان من آلهتهم أيضاً مولوخ (أى الملك) ، وهو الإله الرهيب ، وكان الفينيقيون يتقربون له بأطفالهم ويحرقونهم أحياء أمام ضريحه . وقد حدث فى قرطاجنة أثناء حصارها (٣٠٧ ق . م) أن أحرق على مذبح هذا الإله الغاضب مائتا غلام من أبناء أرقى أسرها(٣٠) .

ولكن الفينيقيين رغم هذا جديرون بأن تكون لهم مشكلة صغيرة فى محراب الأمم المتحضرة ، ذلك أن تجارهم فى أغلب الظن هم الذين علموا الأمم القديمة الحروف الهجائية المصرية ، وإن لم يكن الهيام بالأدب هو الذى وحد شعوب

البحر المتوسط بل كل سبب وحدتهم الشئون التجارية ومطالبها . ولسنا نجد خيراً من هذه المطالب مثالا يوضح ما بين التجارة والثقافة من رابطة منتجة مثمرة . كما أننا لا نعلم على اليقين أن الفينيقيين ، هم الذين أدخلوا هذه الحروف الهجائية إلى بلاد اليونان ، وإن كانت الرواية اليونانية تؤكد هذا بالإجماع[٣١] ؛ وليس ببعيد أن تكون كريت هي التي أمدت الفينيقيين واليونان[٣٢] كليهما بالحروف الهجائية ، ولكن المرجح أن الفينيقيين أخذوا الحروف الهجائية من حيث أخذوا البردي . وإنا لنجدهم في عام ١١٠٠ ق.م يستوردون البردي من مصر[٣٣] . وكان هذا النبات ذا فائدة لا تقدر للأمة التي تعنى بحفظ السجلات الحسابية ونقلها من مكان إلى مكان . وذلك لما فيه من اليسر إذا ووزن بالألواح الطينية الثقيلة التي كانت تستخدم في أرض الجزيرة . كذلك كانت الحروف الهجائية المصرية أرقى كثيراً من المقاطع السمجة المستخدمة في غير مصر من بلاد الشرق الأدنى . وحسبنا أن نذكر عن هذه الحروف أن حيرام ملك صور وهب أحد عائلته في عام ٩٦٠ ق . م كوباً من البرنز عليه نقش بالحروف الهجائية[٣٤] ، وأن ميشا ملك مؤاب أراد في عام ٤٨٠ ق . م أن يخلد مجده فنقش على حجر في متحف اللوفر الآن نقشاً بإحدى اللهجات السامية مكتوباً من اليمين إلى اليسار بحروف شبيهة بالحروف الفينيقية . وقد قلب اليونان اتجاه بعض الحروف لأنهم كانوا يكتبون من اليسار إلى اليمين ، ولكن حروفهم في جوهرها هي الحروف التي علمهم إياها الفينيقيون ، والتي علموها هم أوربا . وهذه الرموز العجيبة هي بلا جدال أثمن ما ورثته الحضارة عن الأمم القديمة .

على أن أقدم ما كشف من كتابات بالحروف الهجائية لم يكشف في فينيقية بل في سيناء . فقد عثر سير وليم فلندرز بتري في سراية الخادم — وهي قرية صغيرة في موضع كان المصريون الأقدمون يستخرجون منه الفيروز — على نقوش بلغة عجيبة يرجع عهدها إلى تاريخ غير معروف على وجه التحقيق ، ولعله يرجع إلى

obeikandi.com

عام ٢٥٠٠ ق . م . ولم تحل رموز هذه النقوش بعد ، ولكن من الجلى أنها ليست مكتوبة بالخط الهيروغليفى ولا بالكتابة المسمارية المقطعية ، بل مكتوبة بحروف هجائية(٣٥) . كذلك وجد علماء الآثار الفرنسيون فى زاپونا بسوريا مكتبة كاملة من الألواح الطينية بعضها مكتوب بالهيروغليفية وبعضها بحروف هجائية سامية ، ولما كانت زاپونا قد دمرت حوالى عام ١٢٠٠ ق . م قبل أن تستكمل نموها ، فأكبر الظن أن هذه الألواح يرجع تاريخها إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد(٣٦) ، وهى توحى إلينا مرة أخرى بما كانت عليه الحضارة من القدم فى القرون التى يحملنا فرط جهلنا على أن نعزو إليها بدايتها .

وكانت سوريا تمتد خلف فينيقية فى حِجْر تلال لبنان ، وتتجمع فيها قبائلها تحت حكم تلك الحاضرة التى لا تزال تفخر على العالم بأنها أقدم مدنه ، والتى لا تزال تأوى السوريين المتعطشين إلى الحرية ، وظل ملوك دمشق زمناً ما يسيطرون على اثنتى عشرة أمة صغيرة من حولهم ، وأفلحوا فى مقاومة ما كان يبذله الأشوريون من جهود لإخضاع سوريا لحكمهم . وكان أهل هذه المدينة من التجار الساميين الذين استطاعوا أن يجمعوا ثروة طائلة من تجارة القوافل التى كانت تجتاز جبال سوريا وسهولها . وكانوا يستخدمون فى أعمالهم الصناع والعبيد ، ولم يكن هؤلاء سعداء أو راضيين . فنحن نسمع أن البنائين نظموا لهم اتحادات عظيمة ؛ وتحدثنا النقوش عن إضراب الخبازين فى مجنيزيا ؛ ونشعر من خلال القرون الطوال بما كان فى إحدى المدن السورية القديمة من نزاع ؛ وما كانت تضطرب به من حركة تجارية كبيرة(٢٧) وقد حذق هؤلاء الصناع تشكيل الفخار الجميل ونحت العاج والخشب ، وصقل الحجارة الكريمة ، ونسج الأقمشة ذات الألوان الزاهية لتتزين بها نساؤهم(٢٨) .

وكانت أزياء الأهلين فى دمشق وعاداتهم وأخلاقهم شديدة الشبه بنظائرها فى بابل ، باريس الشرق القديم المتحكمة فى أذواقه . وكانت الدعارة الدينية منتشرة

فى البلاد ، فكان خصب التربة يرمز له فى سوريا كما كان يرمز له فى بلاد آسية الغربية كلها بأم عظيمة أو إلهة اتصالها الجنسى بعشيقها هو الذى يوحى إلى جميع جهود الطبيعة وعملياتها الإنتاجية . ولم تكن التضحية بالبكارة فى الهياكل عملاً يتقرب به إلى عشتورت وحسب ، بل كان فوق ذلك مشاركة لها فى التهتك الذى يرجى منه أن يوحى إلى الأرض إيحاء قوياً لا تستطيع مقاومته ، وأن يضمن تكاثر النبات والحيوان والإنسان(٣٩) : وكان عيد عشتورت السورية كعيد سيبيل فى فريجيا يحتفل به فى هيرابوليس حوالى الاعتدال الربيعى بحرارة تكاد تبلغ حد الجنون . فكانت نغمات الناى ودق الطبول تمتزج بعويل النساء على أدُنى سيد عشتورت الميت . وكان الكهنة الخصيان يرقصون رقصاً عاصفاً عجاجاً ويضربون أجسامهم بالسكاكين . وفى آخر الأمر كانت الحماسة تغلب الكثيرين من الرجال الذين لم يأتوا إلى الحفل إلا ليشاهدوه ، فيخلعون ثيابهم ويخصون أنفسهم ليهبوا أنفسهم طول حياتهم لخدمة الإلهة ، فإذا جن الليل جاء الكهنة إلى المكان بنور خفى مجهول ، وفتحوا قبر الإله الشاب ونادوا نداء الظافرين أن أدنى - الإله - قد قام بين الأموات ، ثم مسوا شفاه عُبَّاده ببلسم فى أيديهم وأسرّوا إليهم وعدهم بأنهم هم أيضاً سيقومون من قبورهم فى يوم من الأيام(٤٠) .

ولم يكن آلهة سوريا الآخرون أقل تعطشاً للدماء من عشتورت . نعم إن الكهنة كانوا يعترفون بإله عام يضم فى شخصه جميع الآلهة ويسمونه إلى أو إلُو كإلوهيم اليهود ، ولكن الشعب لم يكن يأتى بالاً إلى هذا التجريد المعنوى المادى ، وكان معبوده بعلاً . وقد جرت عاداتهم على أن يوحدوا بين إله المدينة هذا وبين الشمس ، كما كانوا يوحدون بين عشتورت والقمر ، وكانوا إذا حزبهم أمر جلل يضحون بأطفالهم قرباناً له ، كما كان الفينيقيون يفعلون ، فكان الآباء يأتون إلى الحفل وقد أخذوا زينتهم كأنهم فى يوم عيد ، وكانت دقات الطبول

وأصوات المزامير تطغى على صراخ أطفالهم وهم يحترقون فى حجر الإله . على أنهم كانوا عادة يكتفون بتضحيات أقل من هذه وحشية ، فكان الكهنة يضربون أنفسهم حتى تلطخ المذبح دماؤهم ، أو تفتدى حياة الطفل بغلفته ؛ أو ينزل القساوسة من عليائهم فيقبلون مبلغاً من المال يقدمونه للإله بدل الغلفة . لقد كان من الواجب أن يسترضى الإله بطريقة ما حتى يرضى ، لأن عباده قد جعلوه صورة من أنفسهم ، وحلماً من أحلامهم ، ولم يكن يعنى بحياة البشر أو يأبه بعويل النساء(٤٢)

وكانت القبائل السامية الضاربة فى جنوبى سوريا ، والتى كانت تملأ الأرض باضطرابها ولغائها ، تمارس عادات شبيهه بهذه العادات نفسها ، ولا تختلف عنها إلا فى أسمائها وتفاصيلها . لقد حرم على اليهود أن « يجعلوا أطفالهم يمرون من خلال النار » ، ولكنهم كانوا رغم هذا يفعلون هذه الفعلة(٤٢) ، ولم يكن ابراهيم وهو يوشك أن يضحى بإسحق(*) أو أجمنون وهو يضحى بإفجيتيا إلا متبعين سنة قديمة كان أصحابها يحاولون بها أن يسترضوا الآلهة بالدماء البشرية ؛ وقد ضحى ميشا ملك مؤاب بابنه الأكبر فحرقه بالنار ليفك عن مدينته الحصار ؛ ولما أجاب ربه دعاءه وقبل دماء ابنه ، ذبح سبعة آلاف من بنى إسرائيل شكراً لله على نعمته(٤٣) . وظل وادى نهر الأردن الذى يخترق هذا الإقليم مذ كان العموريون فى عهد السومريين يجوبون سهول أمرو (حوالى عام ٢٨٠٠ ق . م) إلى أيام اليهود حين صبوا جام غضبهم المقدس على الكنعانيين ، وحين استولى سرجون ملك أشـور على السامرة ، ونبوخذ نصر على أورشليم (فى عام ٥٩٧ ق . م) ، نقول ظل وادى نهر الأردن ترويه دماء الضحايا البشرية التى تبتهج لها قلوب كثيرين من الأرباب . وليس من اليسير أن ندخل هؤلاء المؤابيين ، والكنعانيين ، والعموريين ، والإدميين ، والفلسطينيين ، والآراميين فى سـجل البشرية الثقافى .

(*) الذى يؤمن به المسلمون أن الذبيح إسماعيل لا إسحاق . (المترجم) .

لسنا ننكر أن الآراميين الكثيرى النسل قد انتشروا فى كل مكان ، وجعلوا لغتهم اللهجة العامية التى يتخاطب بها أهل الشرق الأدنى ، كما أن حروفهم الهجائية التى أخذوها عن المصريين أو الفينيقيين قد حلت محل كتابة أرض الجزيرة المسمارية المقطعية ، فكانت أولا واسطة التبادل التجارى ثم أضحت وسيلة نقل الآداب ، وأمست آخر الأمر لغة المسيح وحروف العرب الهجائية فى هذه الأيام(٤٤) . ولكن الدهر لا يحتفظ بأسماء هذه الشعوب لما قامت به هى نفسها من الأعمال الجليلة بقدر ما يحتفظ بها لأن أصحابها مثلوا دوراً ما على مسرح فلسطين الفاجع . وعلينا الآن أن ندرس شعباً آخر بتفصيل أوفى وأدق من دراستنا لجيرانه ، ونعنى به اليهود ، وهم قوم إذا نظرنا إلى قلة عددهم وضيق بلادهم لا نكاد نراهم جديرين بهذه الدراسة ، ولكنهم أورثوا العالم أدباً من أعظم آدابه ، وديناً من أقوى أديانه ، وعدداً عظيما من أذكى رجاله وأعمقهم تفكيراً .